د. عبد الكريم الحيدري / أ.م.د.علي الشيخ / د. محمد حسين صادق
جامعة المصطفى العالمية/ كلية العلوم والمعارف للدراسات العليا/ ايران

تاريخ الاستلام: ٨/ ١١/ ٢٠٢٢
تاريخ القبول: ١٦/ ١١/ ٢٠٢٢
تاريخ النشر: ١/ ٤/ ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
التوحيد، العقل، التوراة، المعرفة، القرآن الكريم، ، الانجيل.

ملخص البحث:

البحث المقدم والذي جاء بعنوان (التوحيد في مصدرية العقل المعرفي دراسة مقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل)، حيث تضمن بحوثاً مقارنة اعتماداً على نصوص في القرآن والتوراة والإنجيل، تضمنت هذه البحوث دراسة التوحيد في مفهومه وصفاته وأبعاده المعرفية لمصادر من أهم مصادر المعرفة والمتمثلة، (بالعقل)، فكان من الضروري دراسة هذا المصادر والأبعاد المعرفية طبقاً للنصوص المعتبرة عندهم، ولقد اشتمل هذا البحث معالم التوحيد في هذه النصوص التي يمكن أن يستدل بها على الصفات والأسماء الإلهية في القرآن والتوراة والإنجيل في إطار هذا المصدر، والذي يمكن أن يكون مصدراً أساسياً للاستدلال على وجود الذات الإلهية وصفاتها الثبوتية والتي تسمى في عرف علماء الكلام بصفات الكمال والجمال، كل ذلك يأتي من خلال الاعتماد على العقل بعتباره المصادر المهم في مصادر المعرفة

Monotheism in the source of the cognitive mind

A comparative study between the Qur'an, the Torah, and the Bible

Dr.Abdul Karim Al-Haidari / Prof. Dr. Ali Al-Sheikh / Dr. Muhammed Hussein Sadiq

Al-Mustafa International University / College of Science and Knowledge for postgraduate studies

Received: 8 /11/2022

Accepted:16/11/2022

Published:1/4/2023

Keywords:

Monotheism, reason, the Torah, knowledge, the Holy Quran, the Bible.

Abstract

The research presented, which was titled (Tawhid in the source of the cognitive mind, a comparative study between the Qur'an, the Torah, and the Bible), which included comparative research based on texts in the Qur'an, the Torah, and the Bible.), so it was necessary to study these sources and cognitive dimensions according to the texts considered by them, and this research included the features of monotheism in these texts that can be inferred by the divine attributes and names in the Qur'an, the Torah and the Bible within the framework of this source, which can be a basic source for inferring the The existence of the Divine Essence and its affirmative attributes, which are called in the knowledge of theologians the attributes of perfection and beauty, all of this comes through relying on the mind as the most important source in the sources of knowledge.

مقدمة البحث

الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى تتضمن تعاليم ومعارف وحقائق غيبية وإيمانية عظيمة، ولان الدين الاسلامي يعتبر خاتم الأديان وكتابه العظيم يعتبر خاتم الكتب السماوية ولهذا فهو يتضمَّن تعاليم ومعارف عميقة وشاملة تضمن سعادة الإنسان من يوم نزول القرآن إلى يوم القيامة، ويعتبر الإسلام من أكثر الأديان التوحيدية التي دعت إلى التوحيد الخالص لله تعالى، ورفض الشرك بجميع أشكاله، حيث اعتبر الشرك من الظلم العظيم الذي لا يغفر، ويؤكّد القرآن على أنّ التوحيد من الأمور الفطرية التي جُبل عليها الأَنسان، وقد اتّخذ القرآن أساليب متنوّع، ومصادر معرفية عديدة والتي من أهمها العقل في تثبيت عقيدة التوحيد وارساء أركانها في عقول الناس، ويمكن القول أنّ القرآن اعتني بمسألة التوحيد عناية لم يهتم بمثلها تجاه أي مسأل أُخرى من المسائل الاعتقادية، وهذا ما سوف يتبين في هذا البحث، حيث سنتناول النصوص القرآنية المختصة في التوحيد، طبقاً للمصادر المعتبرة والتي من أبرزها العقل، وبسبب ذلك فلقد تمّ وضع عنوان البحث بهذا الترتيب، فكان القرآن مُتقدمٌ على التوراة والإنجيل، وحيث إننا لا يمكن حصر هذا الإهتمام بالقرآن الكريم، فقد تبين من خلال التدقيق في مصدرية العقل المعرفي تأكيد نصوص التوراة والانجيل على هذه العناوين وإن كان بشكل اجمالي، ولكن يبقى البعد المعرفي للقرآن في مجال التوحيد يختلف بشكل كبير عن البعد المعرفي للتوحيد في التورة والانجيل من حيث بيان عمق المطالب وحقيقة التوحيد وشموليته لكل مراتبه الكثيرة، ومن هنا كان خيارنا البحث في التوحيد طبقاً للعقل باعتباره من أهم مصادر المعرفة، ومن ثَمَّ دراسة الابعاد المعرفية للقرآن والتوراة والانجيل، فكان عنوان البحث هو (التوحيد في مصدرية العقل المعرفي).

أولاً: مشكلة البحث

أ: السؤال الأساسي: ما التوحيد طبقاً لمصدرية العقل المعرفي في التوراة والإنجيل والقرآن؟

ب: الأسئلة الفرعية: ما التوحيد في مصدرية العقل في القرآن ؟، ما التوحيد في مصدرية العقل في التوراة؟، ما التوحيد في مصدرية العقل في الإنجيل؟، ما أوجه الإشتراك والإختلاف بين التوحيد في مصادرية العقل في الكتب الثلاثة؟

ثانياً: أهمية البحث

اليوم نلاحظ للأسف بعض المستشرقين في العالم الغربي وبعض الذين يصفون أنفسهم بالمتنورين والمفكرين يشنّون هجمة على القرآن الكريم وهم يتبعون الجهل والظن بتعاليم هذا الكتاب السماوي الخالد فمن المهم كشف اللثام عن المعارف الحقة والعميقة التي جاء بها القرآن الكريم في مختلف الجوانب والأبعاد المعرفية طبقاً لمصادرية العقل المعرفي، ومقايستها بالكتب السماوية الأخرى (التوراة والإنجيل)، ولأنه من الصعب حصر كل الأبعاد المعرفية في هذه البحث وقع اختياري على أهم الأصول الاعتقادية المشتركة بين الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) وهي عقيدة التوحيد وجعلتها قيدّ لدراسة هذه الأبعاد المعرفية اعتماداً على مصدرية العقل المعرفي المعتبرة في هذه النصوص، ولكي تتضح فيما بعد المعارف الحقّة والعميقة والدقيقة التي جاء بها القرآن الكريم بهذا الخصوص، وكذلك يتضح أهم نقاط الاشتراك والاختلاف فيما بين النصوص في الكتب المقدسة الثلاثة في هذا العنوان

ثالثاً: منهج البحث:

باعتبار أن موضوع الدراسة بحث أدياني مقارن فقد اعتمد على عدّة مناهج أولها المنهج الوصفي وهو عبارة استقصاء النصوص في الكتب الثلاثة والتي ترتبط بموضوع التوحيد، وكذلك يعتمد على المنهج التحليلي من خلال تحليل تلك النصوص والثالث المنهج المقارن من خلال بيان مقارنة بين هذه الكتب السماوية بخصوص موضوع التوحيد ومصادر المعرفة.

رابعاً: أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى بيان التوحيد طبقاً لمصدرية العقل المعرفي المعتبر في الكتب الثلاثة، وبيان حقيقة التوحيد القرآني الذي يعتبر من أهم أنواع الإعجاز المعرفي للقرآن الكريم ومقارنته مع التوحيد المعرفي في التوراة والإنجيل وكيفية هيمنة التوحيد القرآني على التوحيد في التوراة والإنجيل من حيث الشمولية والعمق والدقة والمراتب الكثيرة التي ذكرها الله سبحانه في كتابه السماوي الخالد.

المبحث الاول :التوحيد في نصوص القرآن اعتماداً على مصدرية العقل

يعد الدين الإسلامي من أبرز الأديان التوحيدية التي دعت إلى التوحيد الخالص ورفض الشرك بجميع صوره الظاهرية والباطنية، ومن الملفت للنظر أنّ القرآن اعتبر التوحيد من التعاليم الفطرية التي أودعها الله تعالى فيها، ففي قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾،[1] إذ ذهب صاحب تفسير الميزان، أنّ لهذا الدين أصلٌ في الكون والخلقة وليس الإيمان بالتوحيد هو متأصل بالخلقة وإنما التسليم والطاعة لما يترتب على الإيمان بالتوحيد،[2] وهكذا ذهب أكثر المفسرين إلى هذا المعنى التوحيدي،[3]

وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متعددة في تثبيت عقيدة التوحيد في عقول الناس، ويمكننا إيجاز هذه الأساليب بالمحاور التالية:

المحور الأول: الأسلوب الواضح والصريح والذي لا يقبل التأويل في حصر الآلهة في إلهٍ واحد وتوجيه العباد إليه: كما جاء في قوله تعالى في عدة مناسبات نذكر منها: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.[4]

المحور الثانيّ: الأسلوب الإستدلالي والذي اعتمد مصادر المعرفة منطلقاً لإثبات وحدانية الله كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[5]

ففي هذا المبحث سوف نبحث التوحيد بهذين الأسلوبين كما ورد في الآيات القرآني.

اولا : التوحيد في القرآن الكريم[6]

إنّ المسلمين يعتقدون وبحسب ما جاء من نصوص في القرآن الكريم والذي وصل إليهم بالتواتر، بأنّ الله تعالى واحدٌ أحد، ليس كمثلهَ شيءٌ، قديمٌ لم يزال، سميعٌ بصيرٌ عليمٌ حكيمٌ حيٌ قيومٌ عزيزٌ قُدوسٌ قادرٌ غنيٌ لا يوصف: ﴿بجوهرٍ ولا بجسمٍ ولا صورةٍ ولا عرضٍ ولا خطٍ ولا سطحٍ ولا ثقلٍ ولا خفةٍ ولا سكونٍ ولا حركةٍ ولا مكانٍ ولا زمانٍ) (٧) وأنهُ تعالى متعالٍ عن جميعِ صفاتِ خلقهِ، خارجٌ من الحدينِ، حدُ الإبطالِ وحدُ التشبيهِ. وأنّهُ تعالى شيءٌ لا كالأشياءِ أحدٌ صمدٌ لمْ يلدْ فيورث، ولمْ

يولدْ فيشارك، ولمْ يكنْ لهُ كفواً أحد، ولا ندَ ولا ضدَ ولا نظيرَ ولا شريكَ له، لا تدركهُ الأبصارُ والأوهامُ وهوَ يُدركُها، لا تأخُذه سنةٌ ولا نومْ وهو اللطيفُ الخبير، خالقُ كلِ شيءٍ لا إله إلا هو لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُ العالمين' [٨] وبحسب الأسلوب الذي يعتمد على ظواهر القرآن الكريم

ينقسم التوحيد الى أقسام:

أولا: توحيد الذّات: أنَّ الله تعالى لا يقبلُ القسمةَ العقلية ولا القسمة الوهمية، وليست الوحدانية وحدانية عددية، أي واحدٌ بلا عدد، كقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾،[٩] وليست الوحدانية نوعية بأن يقال: الله تعالى فرد من النوع المشار إليه، مثلما يقال: أنّ زيداً فرد من أفراد النوع الإنساني، والمقصود من التوحيد الذاتي هو أنّ الله لا شريك له ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل، فالذات الإلهيّة تكون بحيث لا تقبل التعدد والتكثر، وهذا يعني أنّ ذاته تعالى بسيطة أحديّة سرمديّة، ومن المحال تركّبه؛ أيّاً كان التركّب؛ لأنّ التركيب دليل الفقر والحدوث، والله تعالى أحديُّ الذات، وليس في ذاته أجزا بسيطة أحديّة سرمديّة، ومن المحال تركّبه؛ أيّاً كان التركّب؛ لأنّ التركيب دليل الفقر والحدوث، والله تعالى أحديُّ الذات، وليس في ذاته أجزاء وتراكيب، فهو بسيط الحقيقة لا تكثّر ولا تعدد في ذاته سبحانه.

والآيات التي وردت في القرآن الكريم بلفظ (لا إله إلّا الله) وما شاكلها ناظرة إلى وحدانيّة الذات الإلهية، ونفي المثيل والنظير له تعالى، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾،[١٠] وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾،[١١] وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ﴾،[١٢] وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ﴾،[١٣] وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾،[١٤] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.[١٥] وللتعرف على التوحيد الذاتي، نذكر في تفسير سورة التوحيد أقوال بعض المفسرين:

الرازي في تفسير هذه السورة:سميت هذه السورة بسورة المعرفة، أي معرفة الذات الإلهية المقدسة، وقال، في قوله تعالى: (قُلْ هُو اللهُ أحدٌ)، مسائل نذكرُ منها:هو الله أحد، ألفاظ ثلاثة وكلُ واح منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين، فالأول هو مقام المقربين، وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فما رأوا موجودًا سوى الله لن الحقَّ هو

لذاته يجب وجودهُ، أما ما عداه فمحدود الماهية ومحتاجٌ إلى من يوجده، وأما المقام الثاني فهو مقام أصحاب اليمين، حيث تيقنوا بوجود الخلقَ والخالق، وأدركوا الحاجة والإفتقار عند المخلوقات، وأدركوا الغناء المُطلق عند الخالق، وهو مقام أهل الشمال وهو أخسُ المقامات وأدونها.[١٦]

السيد الطباطبائي في تفسير السورة: السورة تصفه تعالى بأحدية الذات ورجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو التوحيد الذي جاء به القرآن الكريم، يُبنى عليه جميع المعارف الإسلامية، وقوله تعالى: (قُلْ هُو اللهُ أحدْ)، الأحدُ وصفٌ مأخوذٌ من الواحد، غير أنّ الأحد إنما يُطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجًا ولا ذهنًا، ولذلك لا يقبل العدَ، بخلاف الواحد له ثانيًا وثالثًا إما خارجياً أو في الذهن.[١٧]، ومما تقدم فإنّ هذه الآيات تدلّ بحسب ظواهرها وبحسب ما ذكرنا من أقوال المفسرين بوحدانية الله تعالى ونفي المثيل والشبيه والشريك عن ذاته سبحانه وتعالى.

ثانيًا: توحيد الصفات: والمقصود منها صفات الذات، وليس صفات الفعل، فصفات الذات هي عين ذاته تبارك وتعالى كالعلم والقدرة والحياة والقيومية، ومن البديهي إنّ تعدد الصفات يؤدي إلى التركيب والتجزئة، والتركيب يستتبع حاجة وافتقار المركب إلى الأجزاء، كما يستلزم زيادة الصفات على الذات، ويستلزم ذلك افتقاد الذات لصفات الكمال محتاج لمن يفيض عليه بتلك الصفات، وهذه الحاجة والافتقار يتناقض مع كون الذات المقدسة غنياً بالذات. ولقد قسّموا الصفات الثبوتية إلى قسمين منها:

١- الصفات الحقيقية الكمالية، كالعلم، والقدرة، والغنى، والحياة، والقيومة...وهي كلها عين ذاته تبارك وتعالى، وهذه الصفات ليست بزائدة عن ذاته، وليس وجودها إلا وجود الذات، لأنها لو كانت مختلفة في الوجود، وهي بحسب الفرض قديمة وواجبة كالذات للزم تعدد واجب الوجود، واختلت الحقيقية بين الذات والصفات، وهذا ينافي عقيدة التوحيد التي جاءت ظواهر النصوص القرآنية مؤكدةً عليها كقوله تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.[١٨]

٢- الصفات الثبوتية الإضافيّة، كالخلقية، والرازقية وغيرها، وهذه الصفات هي التي يكون مفهومها مفهومًا إضفيًا، ويتوقف انتزاعه على وجود طرف آخر، وذلك لتقوّمها بالطرفين من الخالق والمخلوق، والرازق والمرزوق وهكذا بقية الصفات الذاتية الإضافية، فهذه الصفات معانٍ اعتبارية انتزاعية لا حقائق عينيّة. فالذات الإلهية المقدسة واجدة لجميع صفات الكمال؛ لأنّ الخلو عن الكمال نقصٌ، والنقص منفيٌّ عن الواجب تعالى، فذاته عز وجل منزّهةٌ عن جميع صفات النقصان، وقد أكدت ظواهر النصوص القرآنية هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾،[١٩] وحول قدرته دلت ظواهر النصوص القرآنية عليها كقوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾،[٢٠]وحول حياته قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ بِحَمْدِهِ﴾.[٢١] وغيرها من الآيات التي دلت بظواهرها على غنى الذات الإلهية بكل الصفات الثبوتية الذاتية والإضافية، كالسمع والبصر ولإدراك والتكلم والإرادة، وغيرها من صفات الكمال الإضافية. ومما ورد في هذه الصفات والتي دلت عليه ظواهر القرآن نذكر بعضًا منها:التوحيد الألوهية: كما صرح به القرآن الكريم في أكثر من آية في القرآن الكريم، والمقصود في الأُلوهية هو المعبود الذي تأله إليه القلوب بالتسليم والطاعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.[٢٢] توحيد الربوبية: ولقد جاءت الكثير من الآيات القرآنية تخبرنا على هذا النوع من التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[٢٣]توحيد الخلقية: كما أشارت آيات القرآن على وحدانية الله في خلقه، فهو الخالق لكل شيء سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[٢٤] توحيد العبادة: كما ذكرت الكثير من الآيات وجوب توحيد الله في العبادة وتنزيهها من أنواع الشرك الخفي، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾،[٢٥] ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.[٢٦]التوحيد في الأمر والحاكمية: ولقد دلت بعض الآيات على أنّ الأمر والحكم كله لله وبيده سبحانه وتعالى، كما جاء ذلك في قوله

تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.[٢٧] التوحيد في الخوف والخشية: كما صرحت بعض الآيات، بأنَ الخشية والخوف يجب أن تتمحور بالله وحده لا شريك له، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.[٢٨] التوحيد في المُلك: كما جاء التأكيد عليه في بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.[٢٩]التوحيد في النفع والضَّرر: كما ورد التأكيد على هذا النوع من التوحيد في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾.[٣٠]التوحيد في الرزق: أشار القرآن الكريم في بعض الآيات إلى التوحيد في الرازقية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾.[٣١]التوحيد في التوكل: كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.[٣٢]التوحيد في العمل: وقد جاء التأكيد على خُلُص العمل وارتباطه بالله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾.[٣٣]التوحيد في التوجه: وقد ذكره الله تعالى في القرآن كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.[٣٤]

ثالثًا: التوحيد في الأفعال:

تؤكد ظواهر النصوص القرآنية في أغلب الأحيان على مسألة التوحيد الأفعالي والتوحيد العباديّ، ولقد ذكرنا فيما تقدم النصوص القرآنية التي تنقل لنا عن الصفات الذاتية الثبوتية الحقيقة والصفات الثبوتية الكمالية الإضافية، وكيف أنها متجذرةٌ بفعل الله تعالى، وفي هذا القسم سوف نبيّن ما هو المقصوص من أفعال الله تعالى، وما هي النصوص الدالة عليه.[٣٥] إنّ التوحيد الأفعاليّ يعني أنّ الأفعال التي يقوم بها الله سبحانه لا يحتاج فيها إلى مُعين أو أي جهة تساعده عليها، فهو تعالى مستقلٌ في أداء أي فعل استقلالاً مطلقًا. وذلك لأنه سبحانه وتعالى قد أوجد الفعل وخلق من يقوم بمقدماته وأسبابه، فإذا صادفنا عملاً يتمّ أداؤه من خلال الأسباب والمقدمات، فلا بد أنّ يكون حاضرًا عندنا، بأنّ الله لذي أوجد الأسباب، وأنّ الله خلقّ من يقوم

بتهيئة هذه الأسباب والمقدمات، لا أنّ الله محتاجًا إلى أسباب خارجًا عن ذاته، فأفعال الله هي في فعله واحده، وقد قسمّ العلماء التوحيد الأفعالي إلى أقسام نذكرها:[٣٦]

١- التوحيد في الخلقية: والمقصود في هذا التوحيد، أنّه ليس في عالم الوجود إلا خالقٌ أصيلٌ مستقلٌ واحد، وأما تأثير العلل الأخرى وفاعليتها، فليست إلا في طول خالقيّة الله وليته وفاعليته وسائرةٌ بإذنه، وفي النظر بالآيات قرآنية يتضح لنا أنّ المتبادر من ظواهرها هذا المعاني الذي ذهبنا إليه، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾،[٣٧]وقوله تعالى: ﴿لِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾،[٣٨]وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾،[٣٩]وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.[٤٠]

وأيُّ مدعي للخلق والخلقية فهو لغيره محتاج، فالمتصف بها يكون معتمدًا على الله لا محال، ومحتاج إلى إرادة وقدرته سبحانه وتعالى، فسوف تكون خالقية غير مستقلة، بل تابعة لقدرة الله كما يؤكد ذلك القرآن في قول نبيّ الله عيسى(ع): ﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.[٤١]

ما قاله الرازي في شأن هذه الآية: إنّ هذه الآية تدل على أنه(ع) كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود، حيث ادعوا إنه مبعوث إلى قومٍ مخصوصين منهم. والمراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد أنواع من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله: (قد جإتكم بآيةٍ من ربكم) الجنس لا الفرد. والله حكى ههنا خمسة أنواع من المعجزات، وكلها كانت بإذن الله كما فيما جاء من ذيل الآية.[٤٢]

٢- التوحيد في الربوبية: من المعلوم إنّ تدبير هذا العالم هو بيد الله سبحانه وحده، ومعنى الربوبية تعني تدبير وإدارة هذا الخلق وتصريف شؤنه، وتدل ظواهر القرآن على هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾،[٤٣]وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ

عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.[٤٤]

٣- التوحيد في العبادة: لقد خصّ القرآن الكريم هذا النوع من التوحيد بأهمية كبيرة، وهو أصلٌ مشترك بين جميع الشرائع السماوية، كما ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿قُل يا أَهلَ الكِتابِ تَعالَوا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَينَنا وَبَينَكُم أَلّا نَعبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشرِكَ بِهِ شَيئًا﴾،[٤٥] والمقصود بهذا التوحيد هو أن نجعل عبادتنا خالصتًا لله ولا نُشرك في هذه العبادة معه مخلوقًا له تعالى. ونجتنب عبادة غيره مما يكون مخلوقًا له تعالى، وهذا في مقابل الشرك بالعبادة الذي يعني أن يعبد الإنسان رغم اعتقاده بوحدانيّة خلق هذا الكون مخلوقًا لأي سبب كان، ومن المعلوم أن العبادة هي الخضوع عن اعتقاد بألوهية المعبود وربوبيته، وهذا ما أكدت عليه ظواهر الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾،[٤٦]وقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤٧]

المطلب الأول: التوحيد والعقل في نصوص التوحيد في القرآن

لا يستطيع أحد أن ينكر دور العقل في تحصيل المعرفة، ولكن على ضوء الخلاف بين الحسيين والعقليين في النظرة الى العقل وعلاقته بطرق المعرفة الأخرى، فقد حصل الخلاف بينهم في تفسير هذا الإدراك الذي هو ثمرة من ثمرات وجوده، وهذه المسألة لا يُحسم حلها إلا عن طريق اختيار المنهج القرآني باعتباره يتميز عن المذهب الحسي والعقلي، وذلك من خلال الدور الذي يلعبه العقل باعتباره مُعلّمٌ من الخالق تعالى، وحيث إنّ الإنسان يتميّز عن باقي المخلوقات بقدراته الإدراكية، وهي من المسائل التي أرجعها القرآن الكريم الى أول مخلوق خلقه الله تعالى وميزه بالإدراك عن سائر المخلوقات، وبهذه الميزة يتفاضل بقيمته المعرفية عن المخلوقات، والقرآن قد تفرد بالإشارة الى أصل المعرفة العقلية التي يعود إليها إدراكه، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.[٤٨] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ

أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[٤٩]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.[٥٠] ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٥١] ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.[٥٢]).[٥٣]وهناك أسلوب آخر استعمله القرآن الكريم في الاستفادة من القدرات العقلية لإثبات وحدانية الله تعالى، وسوف نستعرض أهم الاستدلالات العقلية المستوحاة من النصوص القرآنية في إطار مصادر المعرفة والذي من أهم العقل:

برهان النظم: النظام المُتقن الذي يسود كلَّ جزءٍ من أجزاء الكون الممتَد عبر ألاف من السنوات الضوئية، والذي يبدأ من الذرة الى المجرة، هو الذي بعث عند أصحاب العقول بعد أن استثمروا أدواتهم المعرفية، لكي يتوصلوا في آخر المطاف، أنه من المحال أن نتصور، إنّ هذا النظم حدث عن صدفة، أو عن طريق نظرية الارتقاء، ولا بدَّ أن يخضع مثل هذا النظام البديع والمعقد الى قوة عاقلة عليا، وتدبير مدبّرٍ حكيم. والآيات القرآنية أشارت لهذا المعنى، فإذا كانت ورقة من أوراق الشجر، أو ذرة من ذرات العالم، هي دليلاً على حكمة الله تعالى وبرهاناً على إرادته، فهي بطريق أولى تكون دليلاً على أصل وجوده، ومن المعلوم إنّ الوجود مقدمٌ على الصفات، فما دل على الصفات فهو بالأحرى دالٌ على الوجود. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. [٥٤]

برهان الصدّيقين: يتضمّن هذا البرهان دلالة قوية على وجود الله تعالى، فيمكن للإنسان من خلال مطالعة واعية للوجود نفسه، عن طريق التدبر في عظيم القدرة التي أوجدت الخلق، أن يصل الى إثبات الصانع، ولهذا البرهان أصلٌ قرآني وجذور في كتاب الله الكريم.قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ

أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٥٥] ولقد كان لهذا البرهان الدلالة أثرٌ في دعاء الصباح لأمير المؤمنين(ع): (يا من دل على ذاته بذاته وتنزه عن مجانسة كيفياته وجل عن ملائمة) [٥٦]، كما وتعرض اليه ابن سينا في كتاب الإشارات، [٥٧] وأيضاً المحقق نصير الدين الطوسي في كتابه، تجريد الاعتقاد، الذي شرحه تلميذه العلامة الحلي. [٥٨]،قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، [٥٩] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، [٦٠] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، [٦١] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، [٦٢] وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾. [٦٣] إنّ المتأمل في مضامين هذه الآيات، سوف يستنتج منها أنّ المجتمع الجاهلي في شبه الجزيرة العربية، وفي مكة على الأخص، كانَّ يعتقد اعتقاداً راسخاً في وحدانية الله باعتباره الخالق الحقيقي ، بمعنى أنهم كانوا موّحدين ويعتقدون بوجود الخالق، ولذلك فإنَّ أول موضوع طرحه الرسول(ص) على قومه هو الدعوة الى (توحيد الله) في العبادة لا الاعتقاد بوجوده، وذلك لأنّ غالبية مشركي العرب لم يكونوا يعتقدون بأنّ الأصنام هي الخالقة ولا أنها مدبّرة للكون مع الله، إلا أنهم كانوا يعتقدون بأنَّ هذه الأصنام مقربةٌ ولها الشفاعة لديه، ولذلك فإنَّ عبادتهم لها هو الطريق الموصل الى القرب والزلفى لدى الله تعالى، ولقد أكد القرآن شيوع هذا الاعتقاد في عدد من الآيات نذكر بعضاً منها:قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. [٦٤]

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، [٦٥] وقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، [٦٦]

برهان الفقر والإمكان:من المعلوم أنَّ احتياج الأشياء في ظهورها الى الوجود هو في الحقيقة تعبير واضحٌ على افتقارها وعجزها، وإعلان حاجتها الى من هو القادر على سد هذا النقص والعجز، فما لم تكن قوة خارجة عن ذاتها سوف لم يرتفع فقرها، إنّ هذا النظام الذي هو في غاية الدقة والإبداع، هو بحاجة الى العلة التامة التي لها الكمال المطلق في إيجاد النظام الكوني

المسبوق بالعدم وإظهاره الى ساحة الوجود، ذلك لأنّ نسبة كل ممكن الى الوجود والعدم على حدٍ سواء، ويسمى هذا بالإمكان في منطق علماء العقيدة والفلاسفة. ومما تقدم فإنّ المظاهر المادية، والتي في ذاتها تقبل العدم والوجود، فعدم وجودها يعود لعدم وجود مقتضي لإخراجها من العدم. وكذلك يتضح عندما نقول أنّ الظواهر هي مظهر للوجود وتنجذب اليه على أثر وجود عللها، لا يعني ذلك زوال افتقارها الذاتي، بل تبقى محتاجةً دواماٍ وبقاءً وتطوراً الى علة وجودها، كونها متصفةٌ بالفقر الذاتي المستمر، ولأجل هذا أي (الإمكان والفقر الذاتيين) يكون الاحتياج الى العلة التامة احتياجاً أبدياً دائميًا لا تفارق طبيعتها الذاتية. ومما تقدم نستنتج أن كل الأشياء التي تتصف بالفقر الذاتي هي بحاجة الى موجدٌ يتصف بالكمال المطلق وخالقٌ غنيٌ بالأصالة وهذا ما صرح به القرآن الكريم.، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. [٦٧]فهذه الآية تركز على موضوع (الفقر الذاتي) في الإنسان، وكيفية احتياجه الى علته الموجدة (الله تعالى)، وهذه بعض الآيات التي ذكَرَّت بالغنى المطلق لله جلَّ عُلاه: قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾، [٦٨] وينقل القرآن الكريم إقرار موسى(ع) بالنقص والعجز عند خطابه مع الله تعالى ويطلب منه المدد والعون.، قال تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، [٦٩] قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾. [٧٠]

برهان الحركة: في السابق كانّ علماء الطبيعة مثل أرسطو وأتباعه، يستدلّون عن طريق حركة الأجسام والأجرام الفلكية، على إثبات وجود موجد ومحرك لها، ويشترطون في هذا الموجد عدم الحركة، حيث يعتمدون على القاعدة التالية: لا بد لكل متحرك من محرك غير متحرّك. ولذلك لا توجد عندنا مشكلة في إثبات الحركة للوجود، فهذا من الأمور البديهية، حيث إننا نلاحظ وبالمشاهدة الحسية التي هي أداة ومصدر من مصادر المعرفة، بوجود حركة الأشياء، فتساقط قطرات المطر، ونموا الأشجار والثمار بشكلٍ تدريجي، وجريان الماء، وحركة الإنسان في سفره، وحركة الأرض من خلال تتبع حركة النجوم بشكال تدريجي....الخ، وهناك من الشواهد القرآنية العديدة، نذكر بعضاً منها: قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ

النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾،[٧١] و بعد التأمل في هذه الآيات يتضح أنّ حركة الأشياء هي مبدأ لأشار إليه القرآن قبل أكثر من ألف وأربعمائة، في حين أنّ العلم توصل الى هذه الحقيقة متأخراً، ويمكن لنا النظر والتدقيق في حركة الأشياء للتوصل الى المبدأ والمصدر، وذلك من خلال دراسة الكيفية التي تتحرك بها الأشياء للوصول الى ضرورة أن يكون مصدر هذه الحركة له من الكمالات، ما تُأهله لإيجاد هذه الحركة واستمرارها. وكذلك يمكننا تطبيق هذا البرهان على ما احتج به إبراهيم(ع) كما جاء في قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ*، استدل إبراهيم(ع) بحركة الأجرام السماوية الثلاثة على إنها لا تصلح أن تكون هي المدبّر لشؤون الأرض وحوادثها وبالخصوص حركة الإنسان في الأرض، والسؤال المهم هو: كيف ولماذا استدل الخليل بحركة هذه الأجرام على عدم كونها مدبرة أو على عدم كونها مشاركة فيه؟

المطلب الثاني: التوحيد والعقل عند علماء التفسير والكلام

١. السيد الطباطبائي في تفسير الميزان قال: (أنّ التوحيد ونفي الشركاء ليس مما يرجع فيه إلى بيان النبوة، فأنّه مما يستقل به العقل وتقضي به الفطرة، فلا معنى لعده فضلاً على الناس من جهة الإتباع بل هم والأنبياء في أمر التوحيد على مستوى واحد سواء، ولو كفروا بالتوحيد فإنما كفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطرة لا لعدم اتباعهم الأنبياء. لكن يجب أن يُعلم أنّه كما من الواجب في عناية الله سبحانه أن يُجهز نوع الإنسان مضافاً إلى إلهامه من طريق العقل الخير والشر والتقوى والفجور، بما يُدرك به أحكام دينه وقوانيين شرعه وهو سبيل النبوة والوحي). ويمكننا من خلال هذا الاقتباس التوصل إلى الحقائق فيما يتعلق بالتوحيد والعقل بالنقاط التالية:

- أنّ رسالة التي أتى بها الأنبياء تتضمن التبليغ والإنذار، وليس من مهماتهم أن يطلبوا من الناس أن يُقلدونهم في الأُصول الإعتقادية، فإنّ التوصل إلى الإعتقاد بهذه الأصول موكولٌ للفطرة والعقل.

المبحث الثاني: مفهوم التوحيد في التوراة

المتابع بدقة في نصوص العهد القديم يتبين له أنّ في كل نصوصه يتجلى التوحيد بكل أبعاده، فهذه النصوص تتحدث عن إله (الآب) وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنَّ الله عندما اختار موسى رسولاً إلى فرعون خاطبه بالقول: (أنا إلهُ أبيك، إبراهيمَ وإلهُ إسحاقَ وإلهُ يَعقوبَ)، فغَطَّى موسى وَجهَهُ لأنهُ خافَ أن ينظرَ إلى...[٧٢] تفسير الكتاب المقدس: للقمص تادري يعقوب ملطى: لقد جاء في تفسير هذا النص، إذ بارك إسحاق ابنه يعقوب أوصاه ـ كطلب رفقه ـ أن ينطلق إلى خاله لابان ليتزوج من بناته زوجة له تقدر أن تسنده في طريق إيمانه ولا يرتبط كأخيه ببنات حث الوثنيات... وفي الطريق انفتحت السماوات ليرى يعقوب سلّمًا رأسه في السماء وملائكة الله صاعدون ونازلين عليه، والرب واقف عليه.. وإذ استيقظ من نومه مسح الحجر الذي كان مستندًا عليه ليكون عمودًا في بيت الله.

تفسير الكتاب المقدس: للقس أنطونيوس فكري: ظهرت عناية الله بأولاده بصورة واضحة ومتكررة وبخاصة في حياة يعقوب. فالله لا يترك أولاده ويتخلى عنهم أن بدرت منهم أخطاء بل يؤدبهم بضيقات يسمح بها حتى ينزع منهم شرورهم. ويعقوب بالرغم من ضعفاته ومكره كان مشتاقًا للبركة، عينه على السماء وعلى الله. وكل من كان مثله لا يتركه الله، بل يجذبه ويعتني به بالرغم من خطاياه (تك ٤٨: ١٥)، ويستمر الله سامحًا له ببعض الألآم حتى يتكمل. فهو كان معتمدًا على مكره وذكائه. ونجد الله قد سمح له بالألآم حتى يتخلى عن هذا ويلقي كل رجاؤه واعتماده على الله. رحلة يعقوب إلى خاله لابان وزواجه من محبوبته راحيل تمثل تجسد المسيح وقدومه إلينا إلى أرض غربتنا ليتخذنا له عروسًا. أما إسحق في زواجه من رفقة فيمثل المسيح في سمائه. على أننا نجد راحيل وقد أخذها يعقوب إلى كنعان، ولكنها ماتت في الطريق على رجاء القيامة وهذا ما يحدث معنا الآن فنحن نموت إنتظارًا للقيامة. أما رفقة التي تمثل الكنيسة في

السماء وستكون حية للأبد لا يذكر موتها أي موت رفقة.[٧٣]فالشريعة التي جاء بها موسى(ع) تؤكد بشكل واضح وجلي على وحدانية الله سبحانه، وحتى الأنبياء الذين جاءوا من بعده والمذكورون في العهد القديم يؤكدون هذه الحقيقة، وكان لهم دوراً كبيراً في تثبيت هذه العقيدة في نفوس بني إسرائيل، فنجد في سفر اشعياء أن (يهوه) هو الاله الحقيقي، وهو الأول والآخر وأنكر سلطان الإله الأخرى ووجودهم، يقول اشعياء النبي:(هكذا يقول الرَّبُ مَلكُ إسرائيل وفاديهِ، رَبُّ الجُنُودِ (أنا الأولُ وأنا الآخرُ، ولا إلهَ غَيري، ومن مثلي يُنادي فَليخبرْ بهِ ويعرضهُ لي... فأنتم شهودي، هل يوجدُ إلهٌ غيري؟ ولا صخرٌ لا أعلمُ بها، الذين يُصوّرونَ صنماً كُلُهم باطل).[٧٤] أيضا:(حقاً أنت إلهٌ مُحتجبٌ يا إله إسرائيل المخلص، قد خزوا وخجلوا كلهم...الصانعون التماثيل... لأنه هكذا قال الرب خالقُ السماوات هو الله، مصور الأرض وصانعها، لم يخلقها باطلاً... أنا الرب وليسَّ آخر).[٧٥]

وأيضاً قال: (اسمعوا لي يا بيت يعقوب وكلُ بقيةِ بيتِ إسرائيلَ، المُحَمَّلينَ عليَّ من البطنِ المحمولينَ الرَّحم، بمن تشبهونني وتسوّونني وتمثلونني لنتشابه، الذين يفرغون الذهب من الكيس والفضة يستأجرون صائغاً ليصنعها الها يخرّون ويسجدون... فهو موضعه لا يبرح، يصرخ أحد اليه فلا يجيب، اذكروا هذا وكونوا رجالاً، رددوه في قلوبكم، أني أنا الله وليس آخر).[٧٦]ومن يقرأ سفر المزامير المنسوب للنبي داود(ع) يجد فيه تعاليم كثيرة كلها تُشير بأن يهوه هو خالق السماء والأرض وهو الرب الذي يستجيب من يستغيث به لا إله غيره فقد جاء في قوله:(لأنَّ الربُ عظيمٌ وحميد جداً مهوب هو على كل الآلهة، لأن كل أله الشعوب أصنام، أما الرب)[٧٧]. ومن الجدير ذكره أن موسى بن ميمون قد وضع ثلاث عشر ركناً للدين اليهودي أولها التوحيد، وأعطاه معنى قريب من معنى الأُلوهية والتوحيد في الإسلام فقال: أنا أؤمن إيماناً تاماً أنَّ الخالق تبارك اسمه ليس جسداً وهو منزٌ عن أغراض الجسد، وليس له شكل مطلقاً.(أنا أؤمن إيماناً تاماً أن به تليق الصلاةَ والعبادة ولا تليق بغيره، أنا أؤمن إيماناً تاماً أن الخالق تبارك اسمه وحيد ليس لوحدةِ إنيّته مثيل على أي وجه كان، أن أؤمن إيماناً تاماً أن الخالق تبارك اسمه هو الأول وهو الآخر). فعلى ما تقدم نستطيع القول إن عقيدة التوحيد في العهد القديم يقترب إلى حد كبير من الفهم

التوحيدي الذي جاء به القرآن الكريم من حيث المضمون، ولكن يختلفان من حيث الأسلوب البياني وبعض التفاصيل التي تفرد في بيانها القرآن الكريم، كشمولية التوحيد، ومصادر المعرفة، والإسلوب الإستدلالي، وغيرها من أوجه الإختلاف.لكن هذه العقيدة انتكست في عصر تدوينهم لأسفار التوراة، فنجد أن العهد القديم يطرح رؤى متناقضة للإله فيصفه بالكائن البشري، فهو يأكل، ويشرب، ويتعب، ويستريح، وينسى، ويتذكر.(٧٨)

الفيلسوف اليهودي سبينوزا في عقيدة التوحيد عند اليهود

إنّ العقيدة الحاخامية في الذات الإلهية تبلورت من خلال فهم خاص لظواهر النصوص التي جاءت بها التوراة وما لحق بها من نصوص في التلمود، فنحن نشك في أنها عقيدة صالحة من خلال هذا المسار، بأن تكون ممثلة لما جاءت بها نصوص التوراة، وأوضح دليل على ذلك ما صوره لنا الفيلسوف اليهودي (سبينوزا) (٧٩)، في عقيدة الإله الواحد، ويرى سبينوزا أنّ الكون يُعبر عن حقيقة شاملة اسمها (الله)، فالله عنده الطبيعةُ الطابعة، والكون يُسمى عنده الطبيعة المطبوعة، وننقل ما قاله لأهميته: (إنَّ ما ينبغي فهمه بالطبيعة الطابعة هو ما يكون في ذاته ومتصوراً بذاته، أعني صفات الجوهر تلك التي تعبر عن ماهية أزلية لا متناهية، وأعني بالطبيعة المطبوعة كلُ ما ينتج عن وجوب الطبيعة الإلهية، أي كل ما ينتج عن وجوب كل صفة من صفات الله، وأعني بها أيضاً كل أحوال صفات الله باعتبارها أشياء موجودة في الله، ولا يمكنها بدونه أن توجد، ولا أن تتصور). ولما كان الله هو الجوهر الأوحد كان اتصافه بالحرية المطلقة بتعينه لذاته فيقول: (لا يوجد خارج الله أو داخله أي علة كيما تحثه على الفعل، باستثناء كمال طبيعته الشخصية). ويُعد الله ـ عند سبينوزا ـ علة محايثة للعالم، إذ يقول: (كل ما يوجد إنما يوجد في الله، ولا يمكن لأي شيء أن يوجد أو يُتصور بدون الله) (٨٠)إنّ الله كاملٌ وشاملٌ كل الشمول، ومن ثَم فليس له انفعالات وعواطف مثلنا تُحدثها أشياء خارجية، ولأنه كامل وتام فلا يمكن أن يرغب في شيء، ولذلك ليست له غايات ولا خطط يرغب في تنفيذها، وذلك لأنَّ الله يعرف كل شيء، فلا يحتاج الى كل ذلك، ومن ثَم ليس له عقل بالمعنى الإنساني. (٨١) ولكن اليهود على الرغم من إقرارهم بالوحدانية لله تعالى، إلا أنّ لهم تصورات للماهية الإلهية قد تبتعد كثيراً عن مفهوم

التوحيد الحق لله سبحانه وتعالى، ولذلك كانّ من الضروري التطرق إلى تفاصيل هذه العقيدة عند اليهود ، وإنّ من يقرأ العهد القديم يجد فيه من الوضع والتدليس، ما لا يمكن تأويله وتوجيهُ، وذلك لأنّ الآيات المنسوبة إلى الكتاب المقدس ليست قابلة للتوجيه، وفيها من المضامين المسيئة لصفات الله الذاتية والجمالية، وهذا ما سيكون له آثار مضللة على الأبعاد المعرفية التي تم التوصل إليها من النصوص الصحيحة في العهد القديم، والتي تنسجم مع التوحيد الخالص الى درجةٍ كبيرة، وكما تمَّ بيانه في البحث السابق.

العقل: من الواضح إنّ الإنسان استعاد ثقته بإمكانية التوصل إلى المعرفة، بعد أن وجد أمامه عدة تيارات فكرية يؤمن كل منها بأولوية أحد المصادر أو الوسائل المؤدية للمعرفة، فهناك من يرى أنّ المعرفة لا تتحقق إلا بوسيلة واحدة، وهناك من يؤمن تحققها بمصادر أُخرى، غير أنهُ يثق بواحدة منها توصله الى الحقيقة اليقينية.

وسنتحدث هنا عن أهم مصدر للمعرفة، وهو: العقل

المطلب الأول: التوحيد والعقل في نصوص التوراة: في أسفار العهد القديم توجد نصوص فيها دلالات على الحث على التأمل والنظر وإن جاءت على نحو الجمل الخبرية، فقد ورد ما نصه: (فعلم اليوم في قلبك أنّ الرّب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل، ليس سواه [٨٢]. فهذا النص يحث على التأمل والبحث عن الحقيقة التوحيدية، وإنْ جاءت بصيغة الأخبار، ومن المعلوم إنّ الحواس الخمسة من مصادر المعرفة، فقد يأتي لفظٌ من النصوص من قبيل (اسمعْ، انظرْ) في التوراة يتضمن نحو من المعاني الإشارية الدالة على البصيرة القلبية، كماجاء في سفر الأمثال: (المُقتَني الحِكمَةَ يُحبُ نفسهُ، الحَافِظُ الفَهْم يَجدُ خيْرًا.[٨٣]

يقول أنطونيوس فكري:الفقير السالك بكماله خير من ملتوي الشفتين وهو جاهل، أيضًا كون النفس بلا معرفة ليس حسنًا والمستعجل برجليه يخطأ. حماقة الرجل تعوج طريقه وعلى الرب يحنق قلبه. نجد هنا مقارنة بين طريق الحق وطريق العناد والجهل، وخير للإنسان أن يسلك باستقامة وهو فقير مجهول، من أن يكون غنيًا لكنه جاهل لئيم شرير، فالفقير السالك باستقامة سيكون محتوتًا من الناس وله بركة ونعمة من الله، أما الغني الذي له لسان ملتوٍ وشرير فلن يجد

من يحبه ولن يجد بركة من الله، وفي (٢) يتكلم عمن يسلك بدون معرفة، وليس حسنًا للإنسان أن يندفع ويسلك في طريق بجون معرفة وإلا سيكتشف مؤخرًا أنه أخطأ، (بل أن النفس التي بلا معرفة لن تتميز عن الحيوانات)،[٨٤]والنفس هي من الله، فإن تُبقي النفس بلا معرفة لله فهذا خطر على النفس وشرٌ لها، بل هو حكمٌ بالموت عليها ومن ليس له معرفة يندفع في تصرفاته وقراراته.[٨٥]وجاء في سفر الأمثال: (طوبَى للإنسانَ الَّذي يَجدُ الحِكمَةَ، وَللرَّجُل الَّذي يَنالُ الفَهمَ).[٨٦]وجاء في سفر يعقوب: (مَنْ هوَ حَكِيمٌ بَينَكُمْ، فَلْيَرَ أعملهُ بِالتَّصَرف الحَسَن في وَدَعَةِ الحِكْمَةِ).[٨٧]وهناك نصوص يستدل بها عن طريق العقل للوصول إلى معرفة الله وتوحيده، نذكرها تباعًا:

الاستدلال على وجود الله تعالى في نصوص التوراة

أنَّه هذه النصوص وما ورد من تفسير نموذجٍ منها تتضمن النقاط التالية:

١. ابتدأت النصوص بالتأكيد على كسب المعرفة، وهذا يدل على أهميتها، وهذا يبعث الحماس في القدرات العقلية والحسية للبحث عن المصدر والمنبع الحقيقي للمعرفة من حيث الذات والصفات والأسماء، ومما يؤكد هذا الآمر، إنّ بني إسرائيل لا يعلمون أنّ الرب هو نفسه الإله الواحد سبحانه وتعالى أما عن قصد أو عن جهل.

٢. ولعل المراد من هذه النصوص هو الإبلاغ، وما عليهم إلا الطاعة والتسليم، والبدأ بالعمل واستثمار المصادر المعرفية للتوصل إلى معرفة الله تعالى.

٣. ويمكن أن يكون هذا النص، أمراً موجهاً إليهم بالتفكر والنظر بحسب قدراتهم العقلية والحسية، لكي يُثبتوا بأن الربَّ هو الإله الواحد.

وإذا نظرنا إلى هذه النقاط فهي تنقل لنا أهمية النظر والتفكر، وهذا ما نريد الوصول إليه. ومن جهةٍ ثانية إنّ صيغ التي جاءت بها هذه النصوص مثلاً (اسمع، طوبى، من هو الحكيم) عندما تصدر من الوحي، لا شك إنها سوف تبعث في الإنسان الرهبة والخوف، فيندفع هذا الإنسان وبكل حماس للبحث عن ينبوع المعرف وهو الله تعالى، مستعملاً كل الوسائل المعرفية المتاحة عنده، من حواس، وقدرات عقلية، وخبرة سابقة، وحتى التجربة المادية إذا كانت توصله الى المعرفة، وإذا دققنا

النظر في هذه الخطوات، نرى إنها مشابهة الى الخطوات التي يستعملها علماء المنطق للتوصل إلى الحقائق المعرفية، وذلك من خلال الإستفادة من المصادر المعرفية.

البرهان على وحدانية في خلقه وربوبيته:إنَّ النص المتقدم الذي ورد في سفر التثنية: (فعلم اليوم وردد في قلبك أنَّ الرّبَ هو الإله في السماء من فوق، وعلى الأرض مِن أسفل ليس سواه).

يقول أنطونيوس فكري

هو دعوة للطاعة وهو الربط بين القسم الأول أي سرد تاريخ الله معهم وعمله معهم، والقسم الثاني وهو مراجعة الشريعة. ففي القسم الأول يعلمهم الطاعة، وفي القسم الثاني يعلمهم ما هي الوصايا الإلهية التي يجب أن يُطيعونها. وسرد التاريخ معهم يدفعهم أولاً: لأن يشكروا الله ولأن يذكروا إحساناته عليهم.[٨٨]

يقول القمص تادري يعقوب

بعد أن عرض النبي موسى(ع) النبي لمعاملات الله مع شعبه عبر التاريخ إلى وقوفهم عند أبواب أرض كنعان، أوضح لهم ضرورة الاقتراب إلى الله، خاصة خلال قبول الوصيَّة الإلهية، ورفض عبادة الأوثان، حثهم على تذكر ما صنعه الله معهم في الماضي لكي يعلن ذاته لهم بكونه محبًا لهم، وأنّ هذا الإله غير المنظور الذي يقطع معهم عهدًا لا يجوز استبداله بحجارة لا حياة فيها أو خشب أو أيَّة خليقة.[٨٩]ومن خلال ما تقدم من تفاسير لهذه الآية، ومن خلال النظر في المعنى الظاهر، يمكن الاستدلال بها على وجوب معرفة الله وأنّ الخالقَية والربُوبية مُتحدةٌ به سبحانه، فإنّ هذا النص يتضمَّن كلمات رمزية كان من الضروري التوقف عندها وبيانها في النقاط التالية: إنّ لفظ (العلم) في بداية النص، فيه دلالات، فأما أنْ يكون دلالته الإخبار عن أمرٍ ما، وهنا ما على المتلقي إلا التسليّم والطاعة، وإما أن يكون دلالتها فضلاً على ما تقدم، النظر والتفكر فهنا يكون المكلف مسؤولاً عن ذلك، وذلك من خلال إستثمار كل مصادر والمعرفة للتوصل إلى معرفة الله.

المطلب الثاني: التوحيد والعقل عند العلماء الغربيين

يُصنف العقل لدى الفلاسفة القدماء إلى صنفين، الأول: العقل الغريزي، وهو الملكة التي يعلم بها الإنسان الضروريات، فهو غريزة تمتلك علوما أولية أو مبادئ ثابتة، وأما الصنف الثاني: فهو العقل المكتسب، وهو الذي يفهم به الإنسان ويفكر. ويفق الفلاسفة الحداثيون مع هذا التصنيف.[٩٠]

ولقد ظهر المذهب العقلي الذي وُجد داخل الكثير من الأديان، ففي اليهودية والمسيحية يؤمن العقليون مثل (سبينوزا، وشتراوس)، بأن العقل مقياس لحقائق الوحي، في مقابل أتباع مذهب خوارق الطبيعة الذين يرون أن حقائق الوحي لا يمكن عرضها على العقل لأنها ليست في متناوله، وفي الإسلام نجد أيضاً أن المعتزلة والفلاسفة يصرون على بناء عقيدة قائمةٌ على العقل ورفض ما يرونه مناقضاً له مما يرد في الوحي من نصوص.

وأما أتباع المذهب العقلي من العلمانيين فلا يلتفتون إلى الوحي، ويجعلون المفاضلة بين العقل والحس والحدس فقط، ويعتبرون العقل هو المصدر الأول في تحصيل الحقائق اليقينية. بعده في القول عن المقصود بالعقل الفعّال، فاعتبره بعضهم الله تعالى، كالإسكندر الافردويس، واعتبره ثامسطيون أنّه القوةُ التجريدية في العقل البشري، إذا تجرد من المادة وعوالقها.[٩١]

المبحث الثالث: مفهوم التوحيد في الإنجيل

إنّ المسيحية تؤمن بإله واحد، فمثلاً (جورج بابوي) في معرض جوابه في كون المسيحية ديانة موحدة، حيث يؤكد بأنّ التوحيد عندهم يمثل قانون الإيمان وصيغته الاعتراف بالإيمان بالله الواحد، [٩٢] ويحاول (جورج بباوي) أن يفسر التوحيد عند المسيحية بهذا المعنى رغم أنّ دلالة لفظ الواحد لا يساعده، فيحاول تخريج ذلك بالقول: أنّ كلمة واحد ليست عبارة بسيطة، ولها عدة معاني، فإذا تعددت كلمة واحد تعددت معاني التوحيد، فيُقسم التوحيد على حسب معنى الكلمة (واحد) الى:التوحيد المجهول: وهو استعمال كلمة واحدة للدلالة على أنّ الله واحد غير معروف.التوحيد المحدد: وهو اعتبار أنّ الله واحدٌ مكرراً، أو واحدٌ حسابياً، أو الأول الذي يليه آخر.وهذا التقسيم باعتقادهم يخرج هذا المفهوم من الغموض، حيث قال: أنّ المسيحية تؤمن بهذا

الإله الواحد في ثلاثة أقانيم، فالله موجود بذاته، ناطقٌ بكلمته الذي هو (المسيح)، وهو حيٌ بروحه، وبحسب العقيدة المسيحية لا يصح التوحيد لموحدٍ دون أنْ يعتقد بهذا[٩٣]، ولذلك جاءت تعاليم الكتب المقدسة في التوحيد، على طبق أنه لا يوجد إلا إله واحد فقط وهو الأب والابن وروح القدس والذي يحمل صفات اللاهوت، وأنّ لكل من الأب والابن وروح القدس ما للآخر من الألقاب والصفات الإلهية، وأنّ كلاً منهم يستحق العبادة الإلهية، والمحبة والإكرام والثقة، فيتضح من الكتاب المقدس لاهوت الابن، ولاهوت الأب، ولاهوت الروح، كما يتضح لاهوت الأب والابن،[٩٤] وهذا الذي سبق لا وجود له في التعاليم التي تركها لهم المسيح(ع)، فنحن نلاحظ في العهد الجديد فيما تشير وصايا عيسى(ع) إلى معنى مختلف تمامًا، ففي الوصية الأولى في العهد الجديد، عندما سُئل اليسوع عن أهم وأول وصية كما نقل لنا إنجيل مرقس: أي وصيةٍ هي أوّل الكلّ فأجابه يسوع: (أنّ أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل، الربُ ألهنا ربٌ واحد وتحب الربُ إلهك من كُل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك)، وهذه هي الوصية الأولى.

جاء في تفسير الآية: إسمع بالعبرية شيما واليهود يعتبرون الآيتين ٤ . ٥ من أروع العبارات الكتابية ويرددونها دائمًا ويسمونها شيما والسيد المسيح إستعملها بكونها الوصية العظمى في الناموس. الرب إلهنا واحد، وهي تتضمن الوحدانية والتثليث إذ ذكر إسم الرب ثلاث مرات. فتحب الرب إلهك من كل قلبك، فطالما أنّ الله أحب هذا الشعب وصنع له كلّ هذا الفداء العجيب وخلصهم من عبودية فرعون وعالهم في البرية وأتى بهم إلى أرض الميعاد فعليهم أن يحبونه لأنه أحبهم أولاً. وهذا ما ينطبق على عمل المسيح معنا تمامًا.[٩٥]

وجاء في تفسير آخر للآية: تقوم علاقة الشعب بالله على أساس قبول العهد الذي فيه يعلن الله حبه الكامل والفائق للبشرية، والتي من جانبها تلتزم بالطاعة لصوته، والشوق إلى وصيته من كل القلب، وليس فقط من الشفتين، لقد أوضح لهم ضرورة الانشغال بالوصية حين يتمتعون بالإراض الجديدة. بهذا تكون الوصية باعثًا على تذكر عمل الله معهم عوض انشغالهم بالخيرات ونسيانهم وصية الرب إذ صار الشعب على وشك الدخول إلى الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً. هكذا يليق بخدام المسيح أن يُقدموا وصاياه التي خلالها يتجلى في سامعيه، ويكون حاضرًا وسط شعبه.

لهذا ختم الإنجيلي متى إنجيله بقول السيّد المسيح: (علموها أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به. وها أنا معكم كلّ الأيام إلى إنقضاء الدهر)[٩٦]

والوصية الثانية مثلها وهي: (تحب قريبك كنفسك، وليس وصي أُخرى أعظم من هاتين. فقال له الكاتب جيداً يا معلم قلت: لأن الله واحد، وليس آخر سواه) إنجيل مرقس ١٢. ٢٩،٣٠، ٣٠، وهذا يؤكد أن التوحيد الذي وصى به اليسوع يحمل مضموناً كاملاً، فهذه النصوص يتجلى فيها توحيد الربوبية والأُلوهية، ويكون أساس الشريعة وأساس دعوة الأنبياء جميعهم. وجاء في إنجيل يوحنا: تكلم اليسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء، وقال: (أيها الأب قد أتت الساعة... وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) يوحنا ١٧: ١ . ٩.ففي هذه الآيات بيّن عيسى(ع) أنّ طريق النجاة الأخروية ، تتحصل في الاعتقاد والإيمان بأن الأب هو الإله الحقيقي واحدٌ ليس له مثيل ولا شبيه. وورد في إنجيل متى قصة امتحان الشيطان للمسيح: (ثم أخذه أيضاً إبليس إلى جبلٍ عالٍ جداً، وأراهُ جميعَ ممالَك العالم ومجدها، وقال له: أعطيك هذه جميعها أن خرّت وسجدت لي؟ حينئذٍ قال لهُ يسوع: اذهب يا شيطان، لأنه مكتوبٌ للرب الَّهك تَسجُد، وإياه وحدهُ تَعبُد) إنجيل مرقس الإصحاح ١: آية ١٢، ١٣، فيؤكد المسيح في هذه النصوص أنّ السجود له والعبادة له سبحانه، ولا يجوز السجود لغيره كائناً من كان، حتى وأن كان الغير ذو منزلة ورفعة، فيؤكد هذا ما ورد في التوراة العهد القديم.، فقوله: (ليس إلهَ إلا واحد) هو تعبير واضح وصريح عن عمق العقيدة الواحدة التي شعارها التوحيد، وهذا ما جاءت به كل الأديان وهو التوحيد الخالص الذي بعث به الأنبياء جميعهم: (لا إله إلا الله) ويؤكد ذلك هذه النصوص بأن الآب هو وحده الإله لكل المخلوقات.وورد أيضاً في رسالته الأولى إلى طيموتاوس ما نصه: (لأن الله واحدٌ والوسيط بين الله والناس واحد وهو (المسيح) إنسان).وهذه النصوص تؤكد تأكيداً واضحاً وصريحاً في إفراد الله تعالى بالألوهية، حيث تؤكد أولاً أنّ الله واحدٌ، وأنّ المسيح هو الواسطة بين الله والناس. وهو أيضاً ما تؤمن به الكنيس اليوم، ولكنهم مع ذلك يؤمنون بعقيدة الثالوث أو التثليث، وهذا من غريب ما نراه من تناقض، فبينما يعطون لله تعالى هذه الصفات المطلقة والتي تنسجم ضمناً مع عقيدة التوحيد في الإسلام، نراهم

يؤمنون بعقيدة التثليث ويجعلونها شرطاً من شروط الإيمان، وهنا لا بد لنا أن نقف مع بعض الذين فسروا بعض النصوص وأبعدوها عن المعنى الحقيقي الذي أشرنا إليه:

العقل: عد أن تم بحث مفهوم التوحيد في نصوص الإنجيل في العهد الجديد، يمكننا استخلاص مصادر المعرفة من خلال ما جاء في هذه النصوص، فمن خلال هذه النصوص نجد أنّ هناك مساحة واسعة يتحرك من خلالها العقل المعرفي ، فالعقل والحواس، يمكن أن يكونا حاضرين في هذه النصوص، وسوف نتناول في هذا المبحث هذه المصادر مع النصوص التي دلت عليها.

المطلب الأول: التوحيد والعقل في نصوص الإنجيل

العقل من المصادر الأساسية التي جاء التأكيد عليها في نصوص العهد الجديد، ويبدو أنّ الهدف من ذلك هو إثارة العقول وحثها على النظر والتأمل والبحث والتدقيق، وسوف نتناول هذا المطلب من خلال النصوص التالية:

١. فقد جاء في وصية السيد المسيح(ع) الأولى والثانية: التأكيد على استثمار القدرات العقلية التي أودعها الله لنا وذلك للوصول على حقيقة التوحيد الخالص. فقد سئل عيسى(ع) عن أهم الوصايا وأولها، كما نقل ذلك إنجيل مرقس حيث قال: أي وصي أوَّل الكل؟ فأجابه يسوع: أنّ أول كل الوصايا هي: (اسمع يا إسرائيل، الربُ إلهنا ربٌ واحدٌ، وتحب الرب الهكَ من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك، ومن كل قدرتك)، فهذا النص جليٌ في الطلب باستثمار كل المصادر المعرفية للوصول إلى الغاية التي يسعى الإنسان الوصل إليها، وهي معرفة الله وتوحيده، وإشارة هذه النصوص إلى الدور الذي يلعبه الفكر الإنساني وبشكل واضح وصريح، في مجال البحث والوصول إلى الحقائق المعرفية، والتي من أهمها معرفة حقيقة التوحيد وأبعادها المعرفية من خلال الاستفادة من مصادر المعرفة والتي من أهما العقل، وهذا يُبين لنا الأهمية القصوى لبلوغ هذا الهدف، والذي سعى الأنبياء(س) إلى تهيئة الأرضية المناسبة لذلك، فجاهدوا وصبروا واقتحموا كل الصعاب من أجل أن يوفروا للبشرية فرصة التعرف على الله تعالى وتوحيده.

٢. لقد جاء في الوصية الثانية ما نصه: (والثاني مثلها وهي: تحبُ قريبك كنفسك، ليس وصي أخري أعظم من هاتين)، وهذا النص أيضاً يؤكد على أهمية مصادر المعرفة، ومن أهمها العقل

الذي هو الطريق للحصول على المعارف القطعية التي من خلالها يتم بناء الإنسان والاهتمام به وهذا ما جاء النص مؤكّدا عليه.

قول القمص تادري يعقوب في تفسير هذا النص:لقد أوضح لهم ضرورة الانشغال بالوصية حين يتمتعون بالأرض الجديدة. بهذا تكون الوصية باعثًا على تذكر عمل الله معهم عِوض انشغالهم بالخيرات ونسيانهم وصية الرب. ويمكن لنا أن نقسم الوصية إلى أربعة عناوين.

١. الوصية والأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً، (١. ٣).

أما بيان هذه الوصية، فإذا صار الشعب على وشك الدخول إلى الأرض التي تفيض لبنًا وعسلاً، خشي موسى النبي لئلا تشغلهم الأرض عن الوصية، وتشغلهم بركات الرب الزمنية عن شخصه لهذا أكد بكل وسيلة النقاط التالية:

أولاً: أن ما يقدمه لهم من وصايا أو شرائع أو أحكام ليست من عندياته، إنما هي من عند الرب نفسه، إنها وصايا الرب لا موسى، هكذا يليق بخدام المسيح أن يقدموا وصاياه التي خلالها يتجلى في سامعيه، ويكون حاضرًا وسط شعبه، ولهذا ختم الإنجيل متى إنجيلهِ دور الإنسان ودور الله في العهد المبرم بينهما، كثيرًا ما يكرر موسى النبي: أسمع، انظر، احفظ، أعمل، هذه هو دور المؤمن، أما دور الله فهو، يهب، ويُكثرُ، ويُبارك

ثانيًا: أن نتقبل الوصية في حياتنا العملية اليومية: (لتعلموه)، أي يعبروا بها نهر الأردن ويدخلوا إلى الأرض الجديدة كدستور لحياتهم العملية، هكذا إذ يملكون الأرض الجديدة بفكرٍ جديدٍ وشريعةٍ إلهيةٍ جديدةٍ.

ثالثًا: إذ يقبل المؤمن الوصية كنزًا يحتفظ به ويعهد به إلى أولاده وأحفاده، يليق به أن تتحول الوصية إلى تقوى في الرب، وأن يحفظ جميع الوصايا والفرائض، فإنّ من يعلم بلسانه دون قلبه وسلوكه يكون كمن يكتب على الماء.

رابعًا: إنْ كان الشعب سيملك على الأرض المملوءة خيرات كعطية إلهية، فإنه تتبقى خيرات أعظم وعذوبة أفضل يجدها المؤمنون في الوصية.

٢. الوصية كمرافق للمؤمن أينما وُجد، (٤ . ٩)

يعتبر اليهود الآيتين (٤ . ٥) من أروع العبارات الكتابية، ويتلوهما اليهود الأتقياء مع التثنية[٩٧]، والعدد[٩٨]، على الأقل مرتين يوميًا، وقد اقتبس المسيح هذين العددين بكونهما الوصية الأولى والعظمى مع إضافة من كلِ فكرك.[٩٩]

٣. الوصية والتمتع بالبركات، (١٠ . ١٩)، بعد أن تحدث عن ضرورة ارتباط الإنسان بكل كيانه بالوصية الإلهية التي تشغله أينما وُجد، وتحت كل الظروف، قدم موسى النبي تحذيرًا خاصًا بتجاهل الوصية عندما يتمتع الإنسان بالبركات والخيرات الكثيرة، التي في ذاتها عطايا صالحة من قبل الله، لكن إن احتلت مكان الوصية الإلهية في القلب فقدت صلاحها.

القديس يوحنا الذهبي الفم قال: عندما تبتدئون أن تغرقوا في ملذات الترف اذكروا كيف أن اللذة مقصرة، تطلعوا إلى الخسارة، بالحقيقة إنها خسارة حيث يدفع الشخص مالاً كثيرًا لما فيه ضرره . ليسبب له أمراضًا وضعفات . احتقروا الترف.

القدِّيس أوغسطينوس: هكذا يحذرنا من التراخي والإهمال، حاثًّا إيّانا على حفظ الوصية أو الجهاد فيها، فإنّ نعمة الله المجانية لا تعمل في الكسالى والمتهاونين.

٤. الوصية وتذكر التحرر من العبودية، (٢٠ . ٢٥) ، يؤكد موسى النبي أمرين متلازمين:

- تذكار أعمال الله الخلاصية معنا، حتى نشكر الله ونطيعه بلا تذمر.
- الشهادة لأعمال الله، خاصة في الأسرة، نشهد إننا كنا عبيدًا فخلصنا. وكنا عبيدًا لفرعون وإبليس فخلصنا.[١٠٠]

ومما تقدم من تفسير للنص، ومن المعنى الظاهري يمكن لنا التوصل إلى دور العقل في حفظ الوصايا التي إستلهمها القساوسة والمفسرين من الوصيتين المذكورتين في هذا النص.

٣. ورد في إنجيل يوحنا:(تكلم يسوع بهذا، ورفع عينيه نحو السماء، وقال: أيها الأَب قد أتت الساعة... وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)[١٠١]

لقد ورد في هذا النص طلب معرفة الله تعالى، ولقد جاء بتعبير (إن يعرفوك)، وهذه المعرفة لا تأتي من دون نظر وتأمل، وهذا يشير إشارة واضحة على أهمية العقل في اكتساب المعرفة، ومن جهة ثانية فإنّ قول يسوع: ورفع عينيه إلى السماء، أيضاً يتضمن معنى إشاري إلى التأمل في خلق الله تعالى، وهو بطبيعة الحال رسالة من يسوع فيها من الحث على تحصيل المعارف الحقة عن طريق التأمل والنظر في آيات الله تعالى. وتضمنت المناجاة الحديث عن الحياة الآخرة، والتي هي مخصصةٌ لمن عرِف الله ووحده في الدنيا.، إنّ هذه المناجاة تعتبر حافزًا مؤثرا لمن وصله هذا الخطاب، بأن يستثمر المصادر المعرفية والتي من أهمها العقل، وأيضاً فهي تحث الإنسان أن يبحث عن الله في آثاره وآياته، من خلال المصادر المعرفية المتاحة عنده.،ويختار البرهان الذي يوصله إلى النتيجة النهائية، وبهذه المنهجية يمكن للإنسان المتلقي فهم هذه النصوص، واستثمارها بالصورة الصحيحة للوصول أولاً: إلى معرفة التوحيد من خلال المصادر المعرفية، وثانيًا: الاستفادة من هذه النصوص وبالاعتماد على هذه المصادر وعن طريق البراهين التوصل إلى معرفة الله وتوحيده.

المطلب الأول: أهم الاستدلالات من نصوص الإنجيل

يقول السيد المسيح في إنجيل متى: (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض، بل لأُكمل) القمص أنطونيوس فكري في تفسير النص : صلاة المسيح في هذا الصحاح طابعها المجد، قيل إنه خرج مع تلاميذه إلى عبر وادي قدرون، وهذا قلا بعد أن أنهى المسيح صلاته الشفاعية في صحاح (١٧)، ووادي قدرون هذه يفصل بين الهيكل وبين جبل الزيتون، فيكون غالبًا أن المسيح قال هذه الصلاة في الهيكل، في بيت الله يقدم هذه الصلاة للآب أبيه فبيت أبيه بيت الصلاة يُدعى. وهي صلاة فيها مجد للابن وللآب، وللإنسان، فقد كان عمل المسيح الذي تممه هو أن يعطي للإنسان مجدًا. وهذه الصلاة هي طلبات مباركة رفعها الرب يسوع من أجل التلاميذ ومن أجل المؤمنين أعضاء كنيسته، وفيها نرى علاقة ابن الله بأبيه، وكيف أنهما واحد، جوهر واحد متحد في كيان واحد يتسامى على فهم البشر، إلا للذين يُعطى لهم الله أن يدركوا وأن يفهموا، وهؤلاء هم من الأنقياء القديسين المؤمنين الذين يفتح الله بصيرتهم

ليروا بعين الروح لا الجسد.[١٠٢] ، على الرغم من أنّ أغلب تفاسير الكتاب المقدس فسرت النص المتقدم بالكيفية التي فرضتها عقيدة التثليث عليهم، إلا أن البعض من العلماء المسيحيين أمثال (تولستوي) عارض هذا المنهج التفسيري ودعى إلى تأسيس مسيحيّة جديدة خالية من الأسرار والطقوس والميتافيزيقيا؛ أي مسيحية عملية تُصلح لأبناء الأرض جميعًا، فكان يرفض الإيمان الذي يرتبط بعقيدة التثليث،[١٠٣]وبما أنّ بحثنا يدور حول التوحيد في مصادر المعرفة، فيمكننا ومن خلال النص المتقدم الإستفادة من بعض المفاهيم المستخرجة من هذه النص، كمفهوم الظن المقابل لليقين، ومفهوم الشريعة التي أشار إليها النص، فمن خلال هذين المفهومين نتوصل إلى الحقائق التالية:

١. وجوب الإيمان المقترن بالمعرفة.
٢. الشريعة التي جاء بها المسيح هي مُكملة للشرائع.
٣. والتوحيد هو مصدر ومحور العقيدة والتشريع.، ومن المعلوم إنّ التوصل إلى هذه الحقائق المعرفية، يحتاج إلى مقدمات والتي من أهمها استثمار مصادر المعرفة في التأمل والنظر للتوصل إلى معرفة الله المُرسِل والرسول والرسالة.

وصية المسيح: ورد في إنجيل مرقص إنه جاء أحد الكتبة من أصحاب العلم من اليهود، وسأل المسيح(ع) وقال له يا معلم ماهي الوصية الأولى للكل؟، فأجابه وقال له: (اسمع يا إسرائيل الرب الهنا ربٌ واحدٌ) [١٠٤]، وورد أيضاً (بالحقّ قُلت لأنّه الله واحدٌ وليس آخر سِواهُ) [١٠٥].

القمص أنطونيوس فكري في تفسير النص: ماذا تظنون كان لإنسان ابنان فجاء إلى الأول وقال يا ابني اذهب اليوم اعمل في كرمي. فأجاب وقال ها أنا يا سيد ولم يمض، فأي الإثنين عمل إرادة الآب، قالوا له الأول، قال لهم يسوع الحق أقول لكم أنّ العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله، لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون والزواني فآمنوا به وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيرًا لتؤمنوا به، فقال له الكاتب جيدًا يا معلم بالحق قُلت لأنهٍ الله واحد وليس آخر سواه، بل أيضًا مرقس أكد في مثال الكرامين وصاحب الإكرام أنه له ابنٌ واحدٌ وليس أبناء كثيرين.[١٠٦]، على الرغم مما ذهب به هذا المُفسر في حصر تفسيره فيس كيفية إختيار الآب

للإبن وإنهما واحد بشهادة النص المتقدم. إلا أننا ممكن أن نستثمر النص إستثمارًا آخر يصبُ في إثبات التوحيد الخالص وذلك من خلال الإستفادة من مصادر المعرفة، فإنّ النص المذكور في المعنى الظاهري له فيه إشارة واضحة وجلية على وحدانية الله تعالى، ولكن جاء بصيغتين مختلفتين، الأولى بصيغة الأمر التي توجب على السامع التعقل والتبصر قبل الإيمان، ومن البديهي هذا لا يمكن تحققه من دون الاعتماد على أدوات معرفية متكاملة. وفي النص الثاني جاء بصيغة إخبار عن الحقيقة بالقول، ولا مناص من سماع هذه الحقيقة، ولكن سماعها يتطلب الوعي والبصيرة، وهذا يتطلب استحضار العقل والحواس والقلب الطاهر، وهو إشارة الى أدوات المعرفة ومصادرها. ومن خلال ما ورد من فهمٍ للنصين، نستطيع الاستفادة من أحد البراهين العقلية، وهو برهان الصديقين، وباستعمال المصادر المعتبرة في مصادر المعرفة. ومن خلال التأمل في هذه النصوص يمكننا الاستفادة من مقدمات عقلية بديهية، توصلنا أن لا موجد لهذا الخلق إلا الله تعالى، وهكذا فإنّ هذه النصوص التي جاءت في الكتب المقدسة، هي منسجمة تمام الانسجام مع مصادر المعرفة، وأيضاً تُحفز في عقولنا السعي بتجاه البحث والنظر في التعرف على الله الأحد. ورد في إنجيل يوحنا ما نصه: (والمجدُ الذي مِنَ الإلهِ الواحدِ لَستُم تَطلُبُونَهُ)[١٠٧]، وورد أيضاً (وهذهِ الحياةُ الأبدية أنْ يعرفوكَ أنت الالهُ الحقيقيُ وحدكَ ويسوع المسيحُ

المطلب الثاني: التوحيد والعقل عند العلماء الغربيين.

قال هيكل عن الله والعقل:إنه لما كان الله هو موضوع الدين؛ فإنه لهذا هو حرٌّ حريةٌ مطلقة، وهو يعينُ ذاته؛ لأن كل الغايات الأخرى تستهدف الإلتقاء في هذه الغاية القصوى، وهي في حضرته تتلاشى، وتكف عن أن تكون لها قيمة في ذاتها. ويرى هيكل أنه في الدين وفي الله يجد الكل تحققه، ففي الدين حيث تنشغل الروح بذاتها، بهذه الغاية تنزل الأثقال عن كاهلها وتكسب لذاتها إشباعها وخلاصًا نهائيين، فهنا لا تعود الروح تربط نفسها بشيء غير نفسها وهذا محمود، ولكنّ الارتباط بالله الغير محدود واللامتناهي، وهذه هي العلاقة اللامتناهية، هي علاقة الحرية في الفكر وليست علاقة التزمتية أو العبودية، هنا يكون وعيها حرًا حريةً مطلقة، ويكون في الحقيقة وعيًا؛ لأنه وعيٌ بالحقيقة المطلقة وهو الله، وهذا الشرط للحرية في طابعها كشعور هو الإحساس

بالإشباع الفكري الذي نسميه باليُمنِ والبركة، بينما كنشاط روحي فإنه ليس لديها شيء أبعد لتفعله أكثر من تجلية جلالية الله وكشف عظمته[١٠٨]

تعرض هيكل إلى الحرية الفكرية ودورها في تكوين الوعي التوحيدي، وفصل بين الروح في إيمانها، وبين العقل في إيمانه التوحيدي، وانطلق في تأسيس ذلك على مبدئ الحرية الفكرية التي تنسجم مع فكرة الله المطلق، فحيث أنّ الله في وجوده مطلقٌ، فلا بد أن يعيش العقل البشري في فضاء مطلق غير مُقيد. وتعرض بعض العلماء الغربيين وحتى المسلمين إلى العقل وكيفية إرتباطه بالله تعالى.

وأما مالبرانش فإنّه نتيجة قوله: بقيام الأفكار الأولية بذات الله، تمحَّل كيفيةٌ لارتباط الناس بها وعبر عنها ب (الرؤية في الله)، فالله مرتبطٌ بنا كذلك، فإنّ عقولنا ترى في الله حقائق الأشياء في نقائها التام، ومعقوليتها الخالصة، أي: أننا لا نرى الأشياء ذاتها في الله، وإنما الأفكار الأزلية التي تمثلها، وإلا فالأشياء ندركها بانفعالاتنا الحسية، فوجود الشمس ـ مثلاً في الأفق نتعرف عليه حسيًا، لكن حكمنا بدائرية الشمس إنما جاء من رؤيتنا التي مأخوذة من دائرة العقل الإلهي.[١٠٩]

الخاتمة

بحثنا في العنوان الرئيسي (التوحيد ومصادر المعرفة في القرآن والتوراة والإنجيل) محاور مهمة يمكن إيجازها بالآتي:

١- مفهوم التوحيد في مصادر المعرفة طبقًا للنصوص الواردة في الكتب الثلاثة، وقد اتضح أنّ التوحيد يُمَثلُ رُكنًا أساسيًا في هذه الكُتب من حيث حضوره ومحوريته وشموليته في العديد من المحاور الأساسية.

٢- مصادر المعرفة كانت تُمثلُ محورًا مهمًا في نصوص الكُتب الثلاثة، ولا سيما فيما يتعلق في البعد التوحيدي.

وعلى الرغم من حضور هاذين المحورين في نصوص الكُتب الثلاثة بشكلٍ مُلفتْ كما تبين ذلك من البحوث المُتقدمة، وما تمخضَ من كل ذلك من نقاط الإشتراك وإختلاف، فإننا نرى أنّ هناك ضرورة للتطرق إلى عرض النتائج حول مصادر المعرفة بشكل عام ومصادر المعرفة في الكتب

الثلاثة قبل الدخول في عنوان الإستنتاجات حيث إننا سوف نتطرق إلى أهم نقاط الاشتراك والإختلاف بين نصوص الكتب الثلاثة ونقاط الاختلاف فيما تمَّ بحثهُ في هذه المحاور.

المطلب الأول: نقاط الإشتراك والإختلاف في مصادرية العقل في الكتب الثلاثة

من المعلوم إنّ مصادرية العقل للمعرفة مرتبطة إرتباطاً وثيقاً مع الفلسفة والعلوم العصرية، فالفلاسفة وعلماء الغرب يتعاملون مع مصدرية العقل بإسلوب مختلف عن المنهجية التي يتعامل بها علماء الأديان الثلاثة، ولقد نقلنا في هذا البحث المنهجية التي إتبعها الفلاسفة وعلماء الغرب في التعامل مع مصادر المعرفة، فمنهم من جعل العقل هو المصدر الرئيسي للمعرفة، ومنهم من جعل الحس والتجربة هما المصدران الرئيسيان للمعرفة، والبعض الآخر حاول توجيه مصدرية الإلهام والحدس للمعرفة، وأما النصوص التوحيدية في الكتب الثلاثة فقد تعاملت مع مصادر المعرفة بشكلٍ مختلف تماماً، ففي الوقت التي اعتبرت أنّ العقل مصدرٌ مهم من مصادر المعرفة قيدت ذلك بضم الحواس إليه، ورفضت أن يكون العقل مصدراً مستقلاً للمعرفة، وضمن هذا الإختلاف كان من الضروري التطرق إلى نقاط الإشتراك والإختلاف فيما بين المصادر المعتبرة في نصوص الكتب الثلاثة وبين مصادر المعرفة بصورةٍ عامة:

أهم نقاط الإشتراك

١. لا يوجد خلاف من حيث المبدئ بضرورة المصدر المعرفي العقلي لاكتساب المعرفة، إلا عند أهل السفسطة فلم يقروا بوجود حقائق معرفية قطعية.

٢. النصوص التوحيدية في الكتب الثلاثة تتفق على وجود حقائق معرفية طبقاً لمصدرية العقل بشكلٍ إجمالي، مع وجود تفاصيل سوف نتطرق إليها في نقاط الإختلاف.

٣. على الرغم من إختلاف الفلاسفة وعلماء الغرب في عدد المصادر المعرفية وحدودها، فإن النصوص التوحيدية في الكتب الثلاثة قد اتفقت معها على مصدرية العقل فكان العقل الجامع لهذه المصادر والحاضنة لها.

نقاط الإختلاف

١. لقد أضافت النصوص التوحيدية للكتب الثلاثة مصادر نوعية ساعدت في تحصيل الحقائق المعرفية العديدة، وهذا ما تمّ بيانه في المطالب السابقة والتي جاءت متطابقةً مع العقل باعتباره من أهم المصادر المعرفية، بينما المصادر المعرفية بشكلٍ عام والمعتمدة من قبل العلماء الغربيين فكان حضورها ضمن الإطار المادي، ولذلك كانَ نتاجها المعرفي مختصراً على هذا الإتجاه.

٢. إنّ الإختلاف الحاصل عند علماء الغرب فيما بينهم في اعتماد مصادر معرفية محددة، كان من ضمن أسبابه المهمة، هو عدم إيمانهم بالمعارف التي جاءت بها النصوص التوحيدية في التوراة والإنجيل والتي اعتمدت على بعض المصادر المعرفية مثل الوحي والإلهام.

٣. لقد تفردت النصوص التوحيدية في القرآن الكريم في إحصاء كل المصادر المعرفية والتي تمخض عنها حقائق معرفية لا عدَّ لها ولا حصر، ولقد خصت في ذللك العقل، وهذا يعود إلى فاعلية المصادر المعرفية في النصوص التوحيدية في القرآن، فلقد أعطتْ هذه النصوص دوراً مهماً للعقل والحواس في التأمل والنظر والتجربة والإستدلال حتى في أدق الحقائق المعرفية التي أخبرت عنها والتي يُطلق عليها عند علماء الكلام أصول الدين، فأوجبت على الإنسان إستثمار القدرة العقلية للتوصل إلى هذه المعارف الغيبية والتي لا يمكن للحواس إدراكها، ورفضت كل أنواع التقليد، أو العمل طبقاً للمعرفة القائمة على الظن، وهذا يعطي لكل المصادر المعرفية التي جاءت بهل النصوص التوحيدية في القرآن مصداقية كبيرة جداً عند أهل العلم والتحقيق، وهذه الميزة تفرد بها القرآن الكريم عن التوراة والإنجيل وعن الإتجاهات الفلسفية والعلمية والتي تخصصت في تحديد المصادر المعرفية، حيث أثبتت التجارب عدم تمكن كل هذه الإتجاهات من الاتفاق على مصادر محددة، وما يؤكد ذلك هو الإختلاف بين الإتجاه التجريبي والإتجاه والعقلي.

الاستنتاجات

أولا: نقاط الإشتراك

١- لقد أثبتت النصوص في الكتب الثلاثة. وبعد دراستها بعيدا عن التأويلات والتحريف. إنها تتفق على مفهوم التوحيد بشكل إجمالي. فالنصوص التوحيدية التي تتوافق مع مصادر المعرفة، كلها تتفق أن الله تعالى واحدٌ لا شريك له، ولا مثيل له، وهو أحدٌ في وحدانية.

٢- وبعد دراسة النصوص في الكتب الثلاثة. وجدنا أن هناك توافقًا واشتراكًا فيما يتعلق بمصادر المعرفة. مع وجود بعض الاختلافات. وسوف نذكرها في نقاط الاختلاف .

٣- هناك اشتراك بشكل إجمالي على شمولية التوحيد لكلِ الأبعاد المعرفية في نصوص القرآن الكريم. وفي النصوص التوحيدية الصحيحة في التوراة والإنجيل على الرغم من وجود التفاوت الكبير بين شمولية القرآن وشمولية التوراة والإنجيل.

ثانيا: نقاط الاختلاف

١- على الرغم من وجود اتفاق إجمالي في نصوص الكتب الثلاثة حول مفهوم التوحيد طبقا لمصادر المعرفة. إلا أن ما طرحته النصوص القرآنية في هذا الجانب كان يتضمن حقائق معرفية عن الذات الإلهية تتضمَّن، الصفات والأسماء وتوحيد الأفعال وتوحيد الحاكميّة، والتشريع، وتوحيد العبادة وغيرها، كلُ ذلك في إطار مصادر المعرفة والتي من أهمها العقل والحواس، وأما ما جاءت به النصوص التوحيدية الصحيحة في التوراة والإنجيل فلم يكن واضحاً جعل العقل محوراً مهماً وأساسياً للحصول على الأبعاد المعرفية، والواضح من هذه النصوص التوحيدية إنها اعتمدت الوحي والإلهام مصدران رئيسيان للتوصل إلى هذه الأبعاد المعرفية.

٢- إن من أهم نقاط الاختلاف بين النصوص التوحيدية في القرآن والتوراة والإنجيل، هو التناقض الحاصل بين النصوص التوحيدية في التوراة والإنجيل، ففي الوقت الذي نجد فيهما نصوصًا صحيحةً تنقل لنا صورةً عن مفهوم التوحيد الخالص وإن كان منقولاً عن طريق الوحي والإلهام، فإنّ هناك نصوصًا كثيرةً تتقاطع مع تلك الرؤيا، ولقد بينا فيما تقدم إنّ سبب

هذا الاضطراب والتناقض يعود إلى الوضع والتدليس، وهذا ما لا نراه في النصوص التوحيدية في القرآن.

٣- لقد وجدنا أنّ النصوص التوحيدية التي جاء بها القرآن الكريم، والتي أعطتنا صورة واضحة عن التوحيد الخالص اعتمادًا على المصادر المعرفية، كان هذا التوحيد التي جاءت به هذه النصوص متصفًا بالشمولية حيث بيّنت لنا محورية التوحيد في الربوبية والتدبير، بينما لا نجد هذه الشمولية في النصوص التوحيدية في التوراة والإنجيل، بل حتى في النصوص التي نقلت لنا التوحيد الخالص، ولقد تبين لنا أنَّ القرآن الكريم قد تفرد في تبيان البعد الاستدلالي في إثبات ماهية الذات الإلهية وصفاتها الثبوتية والجمالية وذلك بالاعتماد على العقل والحواس، بينما نصوص التوراة والإنجيل لم نجد فيها ما يستدل على ما تقدم، إلا من خلال بعض النصوص والتي أشارت بشكل مجمل إلى ما أشرنا اليه. ولقد بينا ذلك في تفاصيل البحث.

٤- لقد تميّزت النصوص التوحيدية في القرآن الكريم في اعتمادها على مصادر معرفية ذات مصداقيةٍ عالية، والتي من أهمها العقل والحواس والتجربة، وأعطت للعقل والحواس دوراً مهماً وفاعلاً للتوصل إلى الحقائق المعرفية، ولذلك جاءت النتائج هذه مُتطابقًا مع هذه المصادر وغير متخلفة عنها. بينما الكثير من النصوص التوحيدية غير الصحيحة في التوراة والإنجيل جاءت متقاطعة مع هذه المصادر المعرفية، فالكثير من النصوص التوحيدية المحرفة جاءت متقاطعةً مع العقل والمنطق.

٥- لقد اختلفت رؤى العلماء الغربيين مع النصوص التوحيدية والتي اعتمدت على مصادر المعرفة للوصول إلى التوحيد الخالص، حيث عارض البعض منهم وصرح بعدم الاعتماد على هذه المصادر، والآخر أقرّ بالاعتماد على البعض دون الآخر ، ولقد تناولنا هذا الموضوع بالبحث، وتوصلنا إلى صحة المنهجية التي جاءت بها النصوص التوحيدية في إطار مصادر المعرفة، والتي ركزت على مصدرية العقل، حيث أثبتت خطأ ما ذهب إليه العلماء الغربيين، وذلك لأنّ اختلافاتهم في التعاطي مع مصادر المعرفة بطريقة موضوعية، وفرَ الأرضية

لظهور المدرسة المادية الوضعية والتي اختزلت الجهود الجبارة التي بذلها الفلاسفة عبر قرون مديدة.

٦- بعد أن تتبعنا النصوص التوحيدية في القرآن، وجدنا أنها تتضمَّن الحقائق التالية:

- إنها تتخذ منهج الإسلوب الموضوعي المعتمدة على مصدرية العقل في طرح الأبعاد المعرفية للتوحيد الخالص، فتُرجع الآيات المتشابهة من النصوص التوحيدية إلى المُحكم منها. بينما ذهب بعض مُفسري الكتاب المقدس على إرجاع المتشابه من النصوص التوحيدية إلى الثابت في العقيدة الدينية، وعلى سبيل المثال ما عمله القس أنطونيوس فكري في تأويل بعض النصوص والتي يُفهم من ظاهر معناها التوحيد الخالص، حيث أرجعها إلى عقيدة التثليث.
- النصوص التوحيدية جاءت وحدةٌ مُتكاملة مُتناسقة ولا وجود للتناقض فيها هذا ما جاء طبقاً لمصدرية العقل ، على الرغم من عدم جمع آيات التوحيد في سورةٍ واحدةٍ أو في آيةٍ واحدة، بينما النصوص التوحيدية في التوراة والإنجيل جاءت متعارضة في اللفظ والمعنى وهذا ما يتقاطع مع المصدرية المعرفية للعقل.
- صدق الحقائق المعرفية التي جاءت بها النصوص التوحيدية في القرآن، مثلتْ إعجازًا معرفيًا قائمًا ومستمراً إلى يومِ القيامة طبقاً لمصدرية العقل المعرفي.
- صِدقُ الرسول(ص)، فلقد كانت الحقائق المعرفية التي جاءت بها النصوص التوحيدية في القرآن هي إثباتٌ لصدقيّة الرسول والرسالة معا اعتماداً على مصدرية العقل المعرفي.
- ومن أهم ما ميّز النصوص التوحيدية في القرآن أنها أكدت على أهمية العقل والحواس في التوصل إلى معرفة الله تعالى وبالتالي التوصل إلى الحقائق المعرفية المختلفة.
- ولقد تفردت النصوص التوحيدية في القرآن بذكر أبعاد معرفية عن الذات الإلهية والتي جاءت عن طريق الوحي والتي يمكن أن تكون مادةً للبحث والنظر اعتماداً على مصدرية العقل المعرفي، فالذات المقدسة هي الأول والآخرُ والظاهرُ والباطن، وهي مع كلّ شيء، وهي التي استوت على العرش، وهي التي لها القيومة والهيمنة على كلّ شيء، وهي التي تبقى ويفنى

كلّ شيء، وهي التي معنا أينما نكون، وهكذا الكثير من الأبعاد، ونذكر هنا بعض الشواهد من النصوص التوحيدية في القرآن:

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١١٠]

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾[١١١]

قال تعالى: ﴿ولا تدع مع الله إلها ءاخر لا إله إلا هو كلُّ سيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[١١٢]

وللإنصاف فإنّنا لم نلمس فيما تتبعناه وبحثناه في النصوص التوحيدية في التوراة والإنجيل، واحدة من هذه الحقائق التي ذكرناه، والسبب في كلّ ذلك يعود إلى وجود عملية تضليل ممنهجة تعرض إليها الكتابيين المُنزليّن من الله تعالى (التوراة والإنجيل)، والتي كان هدفها طمس الحقائق المعرفية التي جاءت به هذه الكتب المقدسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

هوامش البحث

(١) الروم، الآية: ٣٠
(٢) تفسير الميزان، السيد الطباطبا ئي، ج٩، ص٢٤١
(٣) تفسير ابن الكثير، ج٣، ص٥٠٠
(٤) البقرة، الآية: ١٦٣
(٥) النمل، الآية: ٦١
(٦) كتاب مفاهيم التوحيد، الشيخ جعفر السبحاني المجلد ١، ص٦٦٤ /١٠
(٧)كتاب الاعتقادات، الشيخ الصدوق، ص ٢١-٢٢
(٨) نفس المصدر السابق، ص ٢٢- ٢٦
(٩) المائدة، ٧٣
(١٠) آل عمران، ١٨
(١١) محمد، ١٩
(١٢) الأنبياء، ٨٧

(١٣) النحل، ٢
(١٤) الحشر، ٢٢
(١٥) الإخلاص
(١٦) التفسير الكبير، الفخر الرازي، التوحيد، الجزء ٣٢، ص ١٧٤
(١٧) تفسير الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي، ج٢٠، ص ٣٨٧
(١٨) البقرة، آية الكرسي
(١٩) سبأ، ٣
(٢٠) فاطر، ٤٤
(٢١) الفرقان، ٥٨
(٢٢) سورة البقرة،
(٢٣) الأنعام، ١٦٤
(٢٤) الزمر، ٦٢
(٢٥) الفاتحة، ٥
(٢٦) المائدة، ٧٦
(٢٧) الأعراف، ٥٤
(٢٨) آل عمران ١٧٥
(٢٩) الاسراء، ١١١
(٣٠) الفتح، ١١
(٣١) سبأ، ٢٤
(٣٢) التغابن، ١٣
(٣٣) الليل، ١٩-٢٠
(٣٤) الأنعام، ٧٩
(٣٥) مفاهيم القرآن الكريم، الشيخ السبحاني، ج١، ص ١٤
(٣٦) التوحيد في القرآن، الشيخ جواد آملي، ص ١٦٥
(٣٧) فاطر، ١
(٣٨) الأنعام، ١٠٢
(٣٩) لقمان، ١١
(٤٠) الرعد، ١٦
(٤١) آل عمران، ٤٩
(٤٢) تفسير الرازي، فخر الدين الرازي، ج ٨، ص ٥٨
(٤٣) يونس، ٣
(٤٤) الرعد، ٢

(٤٥) آل عمران، ٦٤
(٤٦) آل عمران، ٦٤
(٤٧) يوسف، ٤٠
(٤٨) البقرة، ٣١ ـ ٣٢
(٤٩) النحل، ٧٨
(٥٠) البقرة، ١٦٤
(٥١) النحل، ٦٩
(٥٢) الروم، ٢٤
(٥٣) روح المعاني في تفسير القرآن، محمود ابن الحسن الألوسي، (تفسير الألوسي) تفسير الألوسي: ج٢، ص ٣٣
(٥٤) البقرة، ١٦٤
(٥٥) فصلت، ٥٣
(٥٦) مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمي، دعاء الصباح، لأمير المؤمنين.
(٥٧) كتاب الإشارات، ابن سينا، ج ٣/ ص ١٨ ـ ٢٨
(٥٨) التجريد، صدر الدين الشيرازي، ص ١٧٢
بشكل آخر في كتابه (الأسفار)
(٥٩) لقمان، ٢٥ ـ الزمر، ٣٨
(٦٠) الزخرف، ٩
(٦١) الزخرف، ٨٧
(٦٢) العنكبوت، ٦١
(٦٣) العنكبوت، ٦٣
(٦٤) يونس،١٨
(٦٥) الزمر، ٣
(٦٦) الزمر، ٤٣
(٦٧) فاطر، ١٥
(٦٨) النجم، ٤٨
(٦٩) القصص، ٢٤
(٧٠) محمد، ٣٨ / ويتكرر هذا النص في ثمانية عشر سورة
(٧١) ياسين، ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠
(٧٢) سفر الخروج ٣:٦
(٧٣) تفسير الكتاب المقدس، للقمص تادري يعقوب ملطي، الإصحاح الثانمن والعشرون، سفر التكوين

(٧٤) سفر اشعياء ٦:٤٤
(٧٥) اشعياء٤٥: ٢١، ١٥،٢٤
(٧٦) اشعياء: ٤٦، ٣، ٥، ٦، ٨
(٧٧) سفر المزامير ٤:٩٦
(٧٨) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، الدكتور عبد الواحد وافي، ص٢٩
(٧٩) (باروخ سبينوزا ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) م: فيلسوف يهودي هولندي، استعمل منهجاً هندسياً في دراسته لموضوعات الميتافيزيقا والأخلاق، من أعماله، رسالة في إصلاح العقل، والحب العقلي لله، ورسالة في اللاهوت والسياسة.
(٨٠) كتاب علم الأخلاق، سبينوزا، ص ٤٥
(٨١) تاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت، ص ١٢٠
(٨٢) سفر التثنية (وهو أحد أجزاء التوراة الخمسة)، إصحاح ٤ عدد ٣٩.
(٨٣) الأمثال، ١٩: ٨
(٨٤) مزمار ٤٩: ٢٠
(٨٥) تفسير الكتاب المقدس، للقمص انطونيوس فكري، سفر الأمثال، الاصحاح التاسع عشر
(٨٦) الأمثال، ٣: ١٣
(٨٧) الأمثال، ٣: ١٣
(٨٨) تفسير الكتاب المقدس، للقس أنطونيوس فكري، تفسير الإصحاح الرابع من سفر التثنية، العدد ٣٩
(٨٩) تفسير الكتاب المقدس، للقمص تادري يعقوب، تفسير الاصحاح الرابع من سفر التثنية العدد ٣٩
(٩٠) كتاب المعجم الفلسفي: مراد وهبة، ٢/٨٧
(٩١) نفس المصدر السابق
(٩٢) هل تؤمن المسيحية بإله واحد، الدكتور جورج حبيب بباوي، (ص ٩ـ ١٢)
(٩٣) التثنية: ٦ـ ٤
(٩٤) قاموس الكتاب المقدس، دائرة المعارف الكتابية المسيحية، موقع الأنبا، ص ٢٣٤
(٩٥) تفسير الكتاب المقدس، للقس أنطونيوس فكري، تفسير الإصحاح السادس من سفر التثنية، آية ٤ ـ ٥
(٩٦) تفسير الكتاب المقدس، للقمص تدرس يعقوب، تفسير الإصحاح السادس من سفر التثنية
(٩٧) التثنية، ١١: ١٣ ـ ٢١
(٩٨) العدد، ١٥: ٣٧ ـ ٤١
(٩٩) مرقص، ١٢: ٣٠

(١٠٠) تفسير الكتاب المقدس، للقمص تادري يعقوب ملطى، تفسير الإصحاح السادس من سفر التثنية
(١٠١) يوحنا، ٣:١٧
(١٠٢) تفسير الكتاب المقدس، القمص أنطونيوس فكري، تفسير إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٧: ٣
(١٠٣) كتاب أوربا والإسلام، الدكتور عبد الحليم محمود، الفصل الرابع، ص ٥١
(١٠٤) الإصحاح ١٢ ـ العدد ٢٩
(١٠٥) مرقس، اصحاح١٢ ـ العدد ٣٢
(١٠٦) مفسري الكتاب المقدس، القمص أنطونيوس فكري، تفسير ١٢: ٣٢
(١٠٧) يوحنا، إصحاح ٥ ـ العدد ٤٤.
(١٠٨) محاضرات في فلسفة الدين، فريدريك هيغل، ترجمة مجاهد عبد المنعم، ص٢٣
(١٠٩) كتاب مع الفيلسوف، محمد ثابت الفندي، ص ١٥٨
(١١٠) الحديد: ٣
(١١١) الحديد: ٤
(١١٢) القصص: ٨٨